يقصد سوى تحقير الفلاح ، والحط من شأنه (١) ، وإزاء هذه النظرة السطحية للكتاب صدرت بعض طبعاته تحمل عناوين فكاهية (٢) ووسط هذه التفسيرات غير العلمية أسيء فهم هذا المصدر ، ولم تجسد الحقائق التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تضمنها العناية الجديرة بها .

ولذا وجب إعادة النظر إلى هذا المصدر من مصادرنا التاريخية ، وتقويم ما فيه من حقائق وأفكار تقويما علميا ، وهذه الدراسة النصية التي نقدمها ، هدفها الأول التنبيه إلى أهمية هذا الكتاب ، وتصحيح بعض الأفكار الخاطئة التي شاعت عنه، ولذا فإنها اعتمدت أساساً على نصوص من الكتاب نفسه ، حتى لاندع مجالا للاسراف غير العلمي في الحديث عن هذا المصدر .

---

(١) كتب عنه كل من ، محمد عبد الغنى حسن في كتابه « الفلاح في الأدب العربي » العدد ١٢٨ المكتبة الثقافية ، ١٥ مارس سنة ١٩٦٥ ، وحسن محسب في كتابه « قضية الفلاح في القصة المصرية » العدد ٢٥٦ المكتبة الثقافية ، ١٥ يناير سنة ١٩٧١ ، عبد الجليل حسن ، في مجلة الكاتب أغسطس ١٩٦٤ ، العدد ٤١ ، ومقالة جيد وفيه بعض الأنصاف للكتاب .

(٢) طبع الكتاب في مطبعة بولاق مرتين ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م ، ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م ، ثم طبع بالمطبعة السعدية ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م وطبع بالمطبعة المحمودية بمصر بدون تاريخ تحت عنوان:

نكت وفكاهة وأدب المعروف بهز القحوف كما ورد في نهاية طبعة المطبعة السعدية « طبع هذا الكتاب المنظوم في سلك كتب الفاكهة بين الأصحاب » وصدر له تنقيح تحت اسم «قريتنا المصرية قبل الثورة » سنة ١٩٦٣ ، إعداد محمد قنديل البقلي وكتب عنه أحمد أمين في كتابه «قاموس العادات والتقاليد» وتوجد من هز القحوف نسخ عديدة بدار الكتب تحت أرقام ٢٧٦١ إلى ٢٧٦٤ ، ٤٣٣٥ ، ٣٠٨٦ ، ٥٠٨٤ أدب كما توجد منه نسخه مخطوطه بالمكتبة التيمورية (أدب ٧٨٣) وهذه النسخة مختلفة عن النسخ المطبوعة لأنها تبدأ بالجزء الثاني الخاص بشرح القصيدة ووجود الكتاب تحت فن أدب دليل على عدم التنبه لأهميته التاريخية .

والمنهج الذى اتبع فى هذه الدراسة هو :

أولا : التعريف بناظم القصيدة التى قام عليها الكتاب ، والظروف التى دفعته إلى الإعراب عما كان يدور بخلد أبناء طبقته ، نتيجة للمظالم التى أحاطت بهذه الطبقة .

ثانياً : التعريف بشارح القصيدة ، والظروف التى دعته إلى الأقدام على وضع شرحه هذا .

ثالثاً : دراسة الأفكار التى تضمنها نص القصيدة ، دراسة تاريخية .

رابعاً : دور الشارح فى إيضاح الحقائق التى ذكرها الناظم فى قصيدته، وتصويره للوضع الاقتصادى والاجتماعى للريف المصرى ، فى الفترة التى عاصرها

خامساً : وضــع تقويم للكتاب كمصدر تاريخى ، اقتصادى ، اجتماعى وأهميته لدراسة هذه الفروع .

وعند معالجة النقطة الأولى من هذه الدراسة ، والخاصة بناظم القصيدة ، فإن ذلك يتطلب أولا ، معالجة الظروف التى دفعت به إلى عمله هذا والتى كانت سبباً فى تخليد اسمه مهما اختلف حول حقيقته .

ويجب أن نشير إلى أن القصيدة موضوع هذا الكتاب — كما يفهم من نصها لم توضع إلا بعد أن استقر نظام الالتزام فى العصر العثمانى ، وأصبح هو الأسلوب الأمثل الذى ارتضته الحكومة لإدارة الأرض ، وإحكام العلاقة بين الفلاحين والإدارة عن طريق الملتزمين كوسطاء بينها وبين أهل الريف ، إذ أن العثمانيين ، لم يتخذوا من هذا النظام — بصورته التى عرف بها منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر أسلوبا لإدارة الأرض ، التى أديرت منذ بداية الحكم العثمانى وإلى سنـــة ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م بنظام المقاطعات ، أو ما كان يسمى بالأمانات لكل منها مفتش ليشرف ويحدد الضرائب على الأرض القابلة للزراعة ، وحمل كل من هؤلاء المفتشين لقب «أمين» أو «افندى» وكان قانون نامه مصر سنة ٩٣١هـ/١٥٢٤م قد أقر هذا النظام ، ولكن هذا النظام لم يكن فى حقيقة الأمر هو النظام الأمثل لإدارة الأرض لأنه حمل فى طياته عوامل فشله ، فعجز المفتشين المختصين، وعدم أحكامهم الرقابة على

مناطق مقاطعاتهم ، واتباعهم أساليب غير مشروعة لزيادة متحصلاتهم وتعيينهم وكلاء لهم تعسفوا فى معاملتهم للفلاحين ، أثبتت هذه الأمور جميعها عدم إمكانية إدارة الأرض بهذا الاسلوب (١) .

وفى سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٤٣م اعاد مقصود باشا تنظيم المالية المصرية وانشأ ديوان الروزنامجة لأحكام الرقابة على أموال الخزانة ، وطور نظام الأمانات ، ولكن تطور الأحداث أثبت للادارة أنه لابد من بديل لنظام الأمانات يحكم قبضتها فى جباية الأموال الأميرية من الفلاحين ، فاهتدت إلى نظام الالتزام الذى يحمل أول دفتر منظم له بديوان الروزنامة سنة ١٠٦٩ هـ/١٦٥٨ م (٢) .

وإذا كان نظام الالتزام بما وضع له من قواعد وأسس محددة ومضبوطة ، أصبح وسيلة ناجحة لإدارة الأرض ، وضمن للادارة جباية الأموال المقررة بمختلف أنواعها ، إلا أن هذا النجاح كان لأمد غير طويل ، فسرعان ما أعلن هذا النظام إفلاسه وكثرت عمليات إسقاط الالتزامات (أى التنازل عنها) بصورة مزعجة ، فاضطرت الروزنامة إلى إنشاء سجلات خاصة بعمليات الإسقاط ، تسمى «سجلات إسقاط القرى » ويحمل السجل الأول منها تاريخ سنة ١١٤١هـ/١٧٢٨م(٣) ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت فئة التجار تدخل ميدان الالتزام وتضارب بالأرض ساعدها على ذلك رأس المال الضخم الذى توفر لدى فئة منها ، وخير مثال لذلك محمد الداده الشرايبى ،

---

١ ــ مجلة المجلة، العدد ١٥٨ فبراير سنة ١٩٧٠ « العلاقات بين القاهرة واستانبول أثناء الحكم العثمانى لمصر من القرن ١٦ حتى القرن ١٨ » بقلم روبير مونتران ترجمة ، زهير الشايب .

Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 – 1798. PP 19 – 26.

٢ ــ دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، دفتر / ١ التزام ، مخزن (١) تركى .

٣ ــ توجد هذه السجلات بأرشيف المحكمة الشرعية بالشهر العقارى وعددها ٤٩ سجلا ، من الحجم المتوسط .

وابنه قاسم من بعده ، الذى تسجل « سجلات إسقاط القرى » فى كل صفحة من صفحاتها شراءه التزامات عديدة من الامراء المماليك وبعض أفراد الأوجاقات ، ومماليكهم وبذلك أصبح نظام الالتزام مشكلة تهدد الإدارة ذاتها ، بالإضافة إلى إرهاقه كاهل أهل الريف ، وكان لابد من إيجاد نظام بديل له ، ولكن الأحداث التى مرت بها مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تمكن الإدارة — التى انتابها الضعف — من البحث عن نظام بديل ، وجاء ذلك على يد محمد على فى سنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م بإحلاله نظام الإحتكار محل نظام الالتزام. وتجدر الإشارة إلى أن مشاركة عدد كبير من أدوات الإدارة كأعوان الملتزم مثل الشد ، الصراف أو المباشر ، الشاهد ، شيخ البلد ، الكاشف ، الخولى ، فى الإشراف على الأرض وجباية الأموال المقررة عليها أرهق الفلاح المصرى ، وزاد من أعبائه ، فلكل من هؤلاء الموظفين حقوق وعادات ، لابد للفلاح أن يؤديها فى مواعيدها المحددة . وإلا لحقه العذاب حتى أصبح لسانه يلهج دائما بعبارات « مال السلطان » و « عادات الكشاف » و « نزلة الصراف » و« المونة » و« الوجبة » وغير ذلك من العبارات التى تدل على الخوف الذى أصبح يسيطر عليه ، وسوء الحال الذى حل به ، والظلم الذى لحقه(*) .

(*) من الطريف أن نذكر مثالا واحداً ، للعادات التى كانت تقدمها القرى لأجهزة الإدارة ففى سجل الترابيع رقم ١٦٠٥ المحفوظ بدار المحفوظات الخاص بولاية الشرقية سجل المال الخاص بكل عادة من العادات المقررة على قرية منية عامر كالآتى :

=

وكان لابد من صوت يعلو معبراً عن الظلم والحرمان اللذين حلا بطبقة الفلاحين وقد كان ، فعلا صوت الشاعر الشعبي المجهول ، الذى اشتهر باسم « أبو شادوف » ، تعبيراً عن كونه من أبناء هذه الطبقة ، لطول ملازمة الفلاح لهذه الآلة التى كانت تستعمل فى رى الأراضى .

ويجب أن نقرر أن « أبا شادوف » ليس شاعراً معروف النسب والنشأة ، وقد حاول الشيخ يوسف الشربينى شارح قصيدة أبى شادوف أن يثبت نسبه ويذكر شيئاً عن نشأته فذكر فى هذا الصدد روايتين ، أردفهما بشعر على لسان أبى شادوف ولكننا نشك فى نسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبى « أبى شادوف » بل أن هذا الشعر أمام الدراسة المقارنة يصبح وثيقة هامة تثبت أن «أبا شادوف» ليس شاعراً معروفا بعينه ، وأنه صوت مجهول عبر عن حال الفلاح ، والشعر الذى ذكره الشيخ الشربينى على لسان أبى شادوف :

= بارة	
٢٠٠٠	ثمن حصان تقدمة
٢٠٠٠	عادة قائمقام
٣٠٠	عادة الخازندار
١٠٠٠	ثمن أغنام الضيافة
١٠٢٠	ثمن أغنام الهبة
١٠٠٠	ركبات مقررة
٣٠٦٠٠	ثمن سمن معتاد
٣٢٤٠	عادة الملتزم
٤١١٦٠	جملة مبلغ العوائد المقررة على قرية منية عامر بولاية الشرقية .

وقد سجلت دفاتر الترابيع العادات المقررة على القرى قرية قرية .

أنا ياناس فى قـــولى دلايل	ونظمى حق ماهوش هبايل
أبو شادوف أنا قال لى أبـويه	عليــه وجدتى أم نايــل
بـأنى قـــد تربيت ياجماعة	بكفر يعرفوه ناس أوايـــل
يسمى كـفر شربلى وطاطى	فكن صاحب فهامة يافسافل
وذا قولى وأبو شادوف اسمى	وشعرى حق من جانى بسايل(١)

وإذا تلمسنا الدليل لإثبات عدم نسبة هذا الشعر إلى الصوت الذى نظم القصيدة موضوع الكتاب وجدناه فى لفظة . هبايل فهذه الكلمة لاترد فى قصيدة أبى شادوف وإنما وردت مرات عديدة ومكررة فى كل صفحة من صفحات الشرح ، وخاصة فى الجزء الأول من الكتاب ، الذى وضعه الشيخ الشربينى كمقدمة للشرح الذى خصص له الجزء الثانى ، فهو يذكر دائماً «هبايل» «هباليات» «هبالية» ، ولذا فإننا لا نستبعد أن يكون هذا الشعر ، من وضع الشيخ يوسف الشربينى نفسه لاستقامته مع أسلوبه الشعرى والنثرى ، وعدم استقامته مع صياغة قصيدة الشاعر الشعبى أبى شادوف .

ودليل ثان على عدم نسبة هذا الشعر لأبى شادوف ، وإثبات أنه شاعر مجهول نجده واضحاً فى الشطرة الثانية من البيت الأخير «وشعرى حق من جانى بسايل» فإذا كان الشاعر معروفاً ويجيب على من يسأله عن شعره بأنه حق ، فلماذا اختلاف الروايات التى ذكرها الشيخ الشربينى حول نسبه ومكان نشأته ؟ . إلا إذا كان الشاعر مجهولا ، وأن هذه الابيات اقحمت عليه .

دليـــل ثالث ، أن الشيخ يوسف الشربينى يقدم لكلامه فى روايتيه اللتين ذكرها عن نسب ونشأة الشاعر الشعبى أبى شادوف بقوله «وسمعت» «وقيل لى»

١ـــ هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، ج٢ ، ص٩٠ ، جميع الصفحات التى ستذكر فى هذا البحث ، صفحات طبعة للطبعة المحمودية ، وسنشير إلى الكتاب بعد ذلك باختصار « هز » .

« وأقول » ونفينا نسبة الشعر السابق إلى « أبى شادوف » ينسحب على الشعر الذى ذكره الشيخ الشربينى على لسان « أبى شادوف » عن مكانته فى كفر شمرلى وطاطى والذى يقول فيه :

أبو شادوف عمــرى يا سلامة　　　أقول القول وأنا صاحب فهـامة

ولولا أن أبويه فى ترابـــو　　　أنا فى الكفر شيخ بلا ملامة(١)

فإذا سلمنا بنسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبى « أبى شادوف » فيجب علينا أن نسلم بوجود كفر باسم « شمرلى وطاطى » وبوجود «تل فندرك» الذى انتقل إليه الشاعر بعد وفاة والده على حد تعبير نص الشاعر المنسوب إليه ، ولكن هذه الأسماء لا تجد الدليل الجغرافى الذى يقف بجانبها ، فإن المصادر التى دونت أسماء كفور وتلال مصر ، المندرس منها والمستحدث ، لاتذكر إسمى « كفر شمرلى وطاطى » « وتل فندرك »(٢) .

ونستخلص مما سبق أن « أبا شادوف » شاعر شعبى مجهول ، علا صوته معبراً عما انتاب الفلاح المصرى من ظلم ، وما حل به من حرمان ، وأصبح هذا الصوت مصدر إزعاج لكثير من أصحاب النعمة والسلطان ، وخاصة بعد أن أصبحت قصيدته ، ينشدها كثير من أهل القاهرة ، فلجأ هؤلاء إلى أصحاب اليراع لوضع شرح عليها يقلل من قيمتها ، ويحط من شأن ناظمها ومن شأن أبناء طبقته من أهل

---

١ ـ هز ، جـ ٢ ، ص ٩٤ .

٢ ـ رجعنا إلى القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ، والدليل الجغرافى الذى أصدرته مصلحة المساحة ، وبعض الأطالس القديمة ولم نعثر على أسماء هذه البلاد ، كما أن دفتر الجسور رقم ١٣٦٥ المحفوظ بدار المحفوظات الذى سجلت فيه جميع القرى وحدودها لم يسجل لا إسم كفر شمرلى وطاطى ولا إسم تل فندرك .

٣ ـ هز ، جـ ٢ ، ص ١٣٠ .

الريف ، وكان هذا العمل من حظ الشيخ يوسف الشربينى . فمن هو هذا الشيخ ؟ ومن الذى كلفه القيام بهذا العمل ؟ وما الظروف التى دفعته إلى قبول هذا التكليف؟ وهل حقق هدف مكلفيه ؟ .

* * *

الشيخ الشربينى هو يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشربينى نسبة إلى بلدة شربين ، التى كانت أنذاك من أعمال ولاية الغربية فقد ذكر « اتفق لى أننى كنت فى سفينة مسافراً من بلدى شربين لمصر ..»(١)، تعلم بالأزهر وعلم به وعمل بالوعظ وكما يبدو من كتاباته أنه كان على صلة بأصوله الريفية ، رغم أن والده لم يكن يعمل بالفلاحة على حد تعبيره ، وهو يحرص دائماً على ذكر اتصاله بالريف بقوله «اتفق لى أن رأيت وحكى لى بعضهم ..» يقصد أهل الريف « وشاهدنا ذلك » وغير تلك العبارات التى تدل على كثرة تردده على الريف ، وكثرة تطوافه بصفة خاصة بريف الدلتا ، ما بين دمياط والقاهرة ، كما اتيحت له فرصة السفر عن طريق الوادى أثناء ذهابه لتأدية فريضة الحج سنة ١٠٧٤ هـ - ١٦٦٤ م ، وفى اتصاله بالريف هذا - كما يتضح من كتاباته نفى لقول بعض الكتاب بأن « نشأة الشيخ يوسف كانت فى القاهرة ، وأن هذه النشأة القاهرية أقامت بينه وبين الريف سداً، وغطت بصره ، فلم ير للفلاحين فضيلة واحدة ، ولم يذكرهم بمحمدة ، وإنما أطال لسانه فيهم بما كان أقرب إلى التجنى منه إلى التحدى»(٢).

---

(١) هز ، جـ ٢ ، ص ١٠٠

(٢) محمد عبد الغنى حسن ، الفلاح فى الأدب العربى ، المكتبة الثقافية ، العدد «١٢٨» ، ص ١٤١ .

وأصل ما ألجأنى لفعله	وشرحه ونسخه ونقله
العارف الحبر وحيد الدهر	وعالم الإسلام زاكى الفخر
شيخ إمام مصدر الطلاب	وروضة العلوم والآداب
ومعدن الجود مع المطلوب	وأعنى الإمام أحمد السندوبى
جزاه رب العرش جنات النعيم	مع النظر لوجه مولانا الكريم
والله يرحم من قرأ كتابى	هذا ، ورشده إلى الصواب
ومن رأى فيه عيوبا وخلل	وسدها فالشخص معدن الذلل
ولا تلمنى فالسماح أفضل	واعذر أخاك مكرها يابطل(١)

ولكن لماذا عزف الشيخ أحمد السندوبى(٢) نفسه عن شرح القصيدة ؟ ولماذا لجأ إلى الشيخ يوسف الشربينى بالذات ؟

ربما كان عزوف الشيخ أحمد السندوبى عن شرح القصيدة بنفسه راجع إلى ما عرف عنه من مقاومة الظلم ، والقصيدة تعبر عن مشاعر طبقة مظلومة تشكو بؤسها وحرمانها وتعرضه لذلك سوف يقوده إلى مزالق قد تخشى عواقبها .

---

(١) هز ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٢) ذكر على مبارك فى الخطط ، ج ١٢ ، ص ٥٧ عن الشيخ أحمد السندوبى « بأنه أحمد بن على السندوبى الشافعى المصرى ، كان من أعيان المدرسين بالأزهر ، ومن أكابر الأفاضل ذا عبارات فصيحة ، تصدر للاقراء فى ضروب من الفنون . . وحج مرات وتوفى بمصر سنة ١٠٩٧ هـ ، ١٦٨٥ م . وعمره ثمان وستون سنة رحمه الله تعالى .

وذكره الجبرتى فى الجزء الأول من كتابه عجائب الآثار ، مرات عديدة تحت اسم « الشهاب أحمد » .

ثانياً ــ مداراة أصحاب السلطان :

ذكر الشيخ يوسف أنه أقبل على هــذا العمل مداراة منه لأصحاب السلطان « فالشخص يكون مع زمانه بحسب حاله ، يدارى وقته بما يناسب لأحواله ويكون حــذرا من دهره وصولته ، ويرقص القرد فى دولته ، ويباشر الناس على قدر أحوالهم ، ويدور معهم ، وينسج على منوالهم ، ويندرج فى مدارج خلاعاتهم، ويظهر فى مظاهر براعاتهم كما قال بعضهم :

ودارهم مادمت فى دارهم　　　وحيهم مادامت فى حيهم
وأحسن العشرة مع بعضهم　　　يعينك البعــض على كلهم »(١)

وقد كان الشيخ يوسف دقيقاً فى كتابته ، فهو يذكر سبب كل خطوة اتبعها ، فهو مدرك لمزاج عصره ، الذى اصبح لا يميل إلى سماع الفكر الجاد ، نظرا للهموم التى كبلت هــذا المزاج ، وشلت حركته الفكرية ، ولذا علل سبب تسميته الـكتاب بالإسم الذى حمله بقوله « وقد سميت هذا الشرح هز القحوف بشرح قصيدة أبى شادوف، وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفـكرة الكاسدة الإعانة على كلام أعرفه من بنات الأفـكار واسطره من فشار ، وأن يكون من بحر الخرافات ، والأمور الهباليات، والخلاعة والمجون . . فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة لأن النفوس الآن مشوقة إلى شىء يسليها من الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم :

فنى مذهبى أن الخلاعة راحة　　　تسلى هموم الشخص عند انقباضه »(٢)

ويمكن أن نستنتج من هذا النص ، إعتراف الشيخ يوسف بأن حكاياته الهبالية

---

(١) هز ، ج ١ ، ص ٤
(٢) هز ، ج ١ ، ص ٣

وخرافاته التى وزعها فى كثير من صفحات الكتاب ، كانت باعترافه من بحر الخرافات والمجون ومن نسج خياله لإدراكه الواعى بالظلم الواقع على أهل عصره حتى أصبحت النفوس على حد تعبيره « مشتوقة إلى شىء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم » ثم أقبل على وضع الجزء الأول من كتابه قائلا « ولنشرع الآن فيما وعدنا ، وما زمرنا به ، ورقصنا،والشخص يغلب عليه علمه وفنه، والزامر لا يخفى ذقنه »(١) .

وسنعرض الآن لدراسة هذا الجزء ، ، وما جاء فيه لنبين إلى أى مدى حقق الشيخ يوسف هدفه فى تحقيق رغبات من يهمهم مثل هذا العمل .



الجـــزء الأول :

هذا الجزء تأليف خالص ، وضعه الشيخ يوسف الشربينى ليمهد به للشرح الذى خصص له الجزء الثانى حسب تقسيمه للكتاب ، وهـذا الجزء فى غالبه نسيج من الحكايات الهزلية تحدث فيها عن أسماء أهل الريف ، رجالا ونساء ، والعادات السائدة بينهم والجهل المطبق عليهم ، وسوء اخلاق أهل الريف ـ كما يرى ـ حقيقة أن معظم هذه الحكايات ، إن لم تكن كلها مشحونة بالتشنيع والافتراء على أهل الريف، لكن لو أدركنا أن الشيخ الشربينى وضع هذه الحكايات للفقة معللا ذلك بقوله ، «حتى يشتهر شرح هذا القصيد من دمياط إلى الصعيد ، وأرجو الا يخلو منه إقليم ولا بلد من بلاد العبيد »(٢) .

كما ذكر مثل هذا القول فى مقدمة أرجوزته التى ختم بها هذا الجزء من الكتاب قائلا«وبعد انى ناظم أرجوزة لطيفة ،مفيدة وجيزة ، تخبر عن حال ذوى الزرالة

(١) هز ، جـ١ ، ص ٥

(٢) نفسه ، جـ١ ، ص٢

كذا عوام الريف ، لا محالة ، فخذ هـداك الله ، ما أقـول فى نظمها ، وعنه لاتحول»(١).

ولكن يجب ألا ينسينا مثل هذا القول ، أن الشيخ يوسف ، كان حريصاً دائما على أن يذكر بعض العبارات ، التى يشعر القارىء أن فيها تصويراً لحال الفلاح السيئة والظلم الواقع عليه مثل عبارة «مال السلطان» التى كان يكررها على لسان الفلاح فى معظم حكاياته وكأنها سوط يقرع الفلاح وينهاه عن فعل أى شىء لنفسه قبل أن يسدد مال السلطان .

على أى حال فإن الشيخ يوسف ، وضع أهل الريف فى هذا الجزء فى إطار يرضى فى ظاهره أصحاب السلطان ، ويشبع رغبتهم ، بتصوير أهل الريف فى صورة سيئة تأبى العين النظر إليها ، ولكن فى ذات الوقت فإن التفصيلات الداخلية لهـذه الصورة تحتوى بما لايدع شكا ، تصويراً كاملا للظلم الذى حل بهذه الطبقة والاهمال الذى أصابها نتيجة للرقابة السيئة التى أصبحت تحكم العلاقة بين أفراد هذه الطبقة من جهة وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ويكفى أن يرسم الشيخ يوسف الصورة التالية لسوء أخلاق أهل الريف ليرضى بها ظاهريا أولى الشأن فهو يقول «أما سوء اخلاقهم ، وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار ، وملازمتهم لشيل الطين والمغار ، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل الكثافة كأنهم خلقوا من طينة البهائم .: وأيضا عندهم قلة الوفا ، وعدم الانس والصفا ، لايؤدون القرض ، ولا يعرفـون السنة من الفرض ، ان عاملتهم أكلوك ، وأن نصحتهم أبغضوك وإن أقمت لهم الشرع رفضوك ، وأن ألنت لهم الجانب مقتوك ، العالم عندهم حقير والظالم عندهم كبير أمورهم معاند ، وليس عندهم فوائد ، عندهم قابض المال أعز من العم والخال ، سود الوجوه ، إذا رأوا معروفا انكروه كما قال الشاعر فى المعنى :

---

(١) نفسه ، جـ ١ ، ص ٨٣

أهل الفلاحة لاتكرمهم أبداً   فإن إكرامهم فى عقبه ندم
يبدو الصياح بلا ضرب ولا ألم   سود الوجوه إذا لم يظلموا ظلموا»(١)

ولكنه بجانب هذه الصورة فإنه يذكر كثيرا فى ثنايا حكاياته، بعض مظاهر القسوة التى يرتكبها رجال الإدارة مع الفلاحين، وهجر هؤلاء لقراهم ومزارعهم خوفا من العقاب، فالإبن يفر هاربا إذا انكسر مال السلطان على أبيه، وإلا أخذ رهينة حتى يناق أبوه ماعليه من مال فعبارات «مال السلطان» و «المعونة». «الوجبة» «زلة الصراف» «مجىء الديوان» «زلة الكشاف» لاتذكر فى هذا الجزء إلا ويشعر القارىء بمدى الرهبة التى كانت تسيطر على الفلاح عند سماعه إحداها. فحاول واحدة منها معناه طلب المال والعوائد من الفلاح رغم سوء حاله الاقتصادية التى أصبح يعيشها. ومن هنا كان الصراع بين طبقة الفلاحين من جهة، وأجهزة الإدارة من جهة أخرى، ولكن الغلبة كانت للفريق الأقوى، وهروب الفريق الأضعف، فهو صراع غير متكافىء على أى حال. أيضا فإن الشيخ يوسف فى هذا الجزء، حرص كل الحرص، أن يذكر دائما عبارة «عوام أهل الريف» فيقول

---

١ — هز، ج ١ ص ٥ — ٦
للجبرتى وصف شبيه بهذا الوصف فقد «قال وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين بسوء أفعالهم، وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرارهم لبعضهم البعض من لايرحمهم ولا يعفو عنهم كما قال فيهم البدر الحجازى:

وسبعة بالفلح قد أنزلت   لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم، استاذهم والشد   والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى، كاشف الناحية   وزد عليها كدهم فى اشتغال
ونقرهم ما بين عينيهم   مع أسوداد الوجه هذا النكال

عجائب الآثار، ج ٤ ص ٢٠٨.

« وقال لى بعض عوام أهل الريف » ، « واتفق لبعض عوام أهل الريف » والتعريض دائما فى هذا الجزء موجه إلى عوام أهل الريف دون غيرهم ، وربما أراد الشيخ بذلك أن يخرج من أهل الريف العرب والمماليك وغيرهم من أجهزة الإدارة الذين استلزم عملهم إقامتهم بالريف ، على أى حال فإن التعريض فى هذا الجزء ارتبط بعوام أهل الريف ، ولعله قصد بهم العاملين بالفلاحة فعلا .

وختم الشيخ يوسف الجزء الأول من كتابه ، بارجوزة طويلة سرد فيها جميع الأفكار الرئيسية التى وردت فى حكاياته من سوء أخلاق عوام أهل الريف ، وبذاءة أسمائهم والجهل والفقر اللذين حلا بهم ، والطرق الصوفية وسيطرتها على عقولهم وتأثيرها على حياتهم ، ثم سفه شعرهم ، وربما لأنه أدرك أنه مقبل على شرح قصيدة من هذا الشعر ولذا قال :

ناظمهم إن قال يوما شعرا	فشعر يشبه طعم المغرا
سماعـــه إذا بدا رزية	لـكن له ما بينهم مزية(١)

ويجب أن نشير إلى أن الشيخ يوسف ، رغم كل ذلك ، قد التمس العذر لنفسه فالذى جعله يقبل على عمله هذا سمة العصر — على حد تعبيره — فهى التى دعته إلى مثل هذا التلون فى الأسلوب فذكر « فالسلامة فى مداراة الناس ، وحسن الانطباع معهم بلطف الإيناس وأن يكون الشخص متنقلا فى أطوارهم دائراً فى فلك أدوارهم كما صرحت بذلك فى بعض الأبيات .

فطورا ترانى عالمـا ومـــدرسا	وطورا ترانى فاسقا فلفوســـا
وطورا ترانى فى المزامر عاكفا	وطورا ترانى سيـــدا ورئيسا
مظاهر أنس إن تحققت سرها	تريك بدورا أقبلت وشموسا »(٢)

---

(١) هز ، جـ ١ ، ص ٨٧ (٢) نفسه ، جـ ١ ، ص ٥

وهكذا نرى أن الشيخ يوسف كان دائما يلتمس لنفسه العذر ، لكل مايقدم عليه ، وربما لأنه أدرك أن إقدامه على مثل هذا العمل سوف يجر عليه غضب وحقد الكثيرين .



الجزء الثانى .

عندما بدأ الشيخ يوسف الشربينى فى الجزء الثانى الخاص بشرح القصيدة الشعبية فإنه اعترف فى بداية هذا الجزء بأنه أطلق « عنان اليراع لبيان تلك الأمور الحاصلة لحل معانى نظم القصيدة(١) ويجب أن نتنبه لمغزى معنى عبارته « لبيان تلك الأمور الحاصلة » فإنه من خلال هذه الكلمات أعطى لنفسه حق ذكر وإيضاح الأعباء الظالمة التى كان يشكو منها الفلاح .

والدارس يستطيع أن يميز بسهولة فى القصيدة ثلاثة أقسام ، كل قسم منها تناول موضوعا قائما بذاته ، وسنعرض لكل منها على حدة ، نذكر نص الأبيات التى تشكل القسم ، ثم نتلوها بدراسة شرح الشيخ الشربينى لها ، وقد تناول القسم الأول (*)

---

(١) هز جـ ٢ ، ص ٩٠ .

(*) أبيات القصيدة موزعة على صفحات الجزء الثانى كله ، حيث أن الشيخ الشربينى يذكر البيت من النص ويضع أمامه حرف (ص) يقصد النص ثم يشرحه بوضع حرف (ش) أمام كلامه ويقصد الشرح وقد قمت بتجميع نص القصيدة من صفحات الجزء الثانى وكتبت أبيات كل قسم على حدة ، حسب التقسيم الذى وضعته لموضوعاتها .

١ - القسم الأول من القصيدة وموضوعه :

شكوى الفلاح من ظلم الملتزمين وأعوانهم من أجهزة الإدارة والأبيات التى تصور هذا الجانب من حياة الفلاح .

١ - يقول أبو شادوف من عظم ماشكى	من القىل جسمه مايضال نحيف
٢ - أنا القمل والصيبان فى طوق جبق	شبه النخالة يجـرفوه جريف
٣ - ولا ضرنى إلا ابن عمى عيلبـة	يوم تجى الوجبـة علىّ يحيف
٤ - وأيشم منه ابن أخـوه خنافر	يقـرط على بيضى يخليـه ليف
٥ - ومن نزلة الـكشاف شابت عوارضى	وصار لقلبى لوعـة ورجيف
٦ - ويوم يجى الديوان تبطل مفاصـلى	وأهرب على روحى من التخويف
٧ - وأهرب حدا النسوان والتف بالعبا	ويبقى ضراطى شبه طبل عنيف
٨ - ويادوب عمرى فى الخراج وهمـه	تقضى ولا لى فى الحصاد سعيـف
٩ - ويوم تجىء الدونة على الناس فى البلد	تخبينى فى الفرن أم وطيف

واضح من هذه الأبيات شكوى الشاعر الشعبى الذى يعبر عن إحساس بنى طبقته من الظلم الواقع عليهم من أجهزة الإدارة التى يتعاملون معها ، وقسوة هذه الأدوات العثمانية - المملوكية ، - فى جمعها للأموال ، واتباعها طرقا غير مشروعة ، وهذا مالم يستطع الشارح أن ينـكره ؛ بل أكده كمعاصر ، وشرح هذه المظالم التى كانت سائدة فى عصره بإيضاح ، مما يجعل لمعلوماته أهمية كبيرة ، ترقى إلى مصادر الدرجة الأولى لدراسة تاريخ مصر فى تلك الفترة ، والأدلة على ذلك كثيرة فى الشرح نـكتفى بذكر البعض منها ، فمثلا عندما يتعرض لشرح البيت الثالث الخاص بشكوى الفلاح من الوجبة يذكر « بمجرد طلوع المشد أو الملتزم أو النصرانى إلى الـكفر ، أو البلد ، فتوزع على الفلاحين بحسب ما يخصهم فى الأرض من القراريط والفدن ،

ونحو ذلك ، فمنهم من يكون عليه فى الشهر يوم ، ومنهم من يفعلها فى كل جمعة(*) مرة ، ومنهم من يجعلها فى كل ثلاثة أيام ، وهكذا بحسب كثرة الفلاحين وقلتهم ، وحسب زيادة الأرض ونقصها فلابد منها فى كل يوم مدة الإقامة ، فيقوم الرجل بكلفة للشد أو النصرانى إن كان حاضرا ، وجميع من يكون من طائفة الملتزم ويلتزم بأكلهم وشربهم ، وجميع مايحتاجون إليه من عليق دوابهم وما يتمنونه من المأكل من اللحم والدجاج ، ولو كان فقيرا الزموه بذلك قهرا عليه ، وإلا حبسه الشد وضربه ضربا موجعا ، وربما هرب من قلة شيء يصنعه ، فيرسل للشد إلى أولاده وزوجته ويهددهم ، ويطلب منهم ذلك ، فربما رهنت المرأة شيئا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم ، وأخذت الدجاج أو اللحم وأطعمتهم وأحرمت أولادها من الأكل منه خوفا على نفسها من أنه لايكفيهم مثلا ، وقد يربى الفلاح الدجاج فلايأكل منه شيئا ويحرم نفسه وعيـاله من خوفه من الضرب والحبس . . . وصارت (الوجبة) على الفلاحين حكم الأمر الواجب عليهم للملتزمين ، فلا بد من فعلها للشد بالقرية أو النصرانى أو الملتزم ، إذا حضر كما تقدم بيانه ، وإذا أسقطها بعض الملتزمين ، جعـــل فى مقابلتها شيئاً معلوما من الدراهم وأضافة إلى المال ويلزمهم بدفعه إلى للشد بالقرية ، تؤخذ منهم كل عام فهى من أنـواع الظلم» (١) .

وفى رأينا أنه لايوجد أبلغ وأوقع فى النفس من هذا الوصف التصويرى الذى

(*) يقصد كل أسبوع .

(١) هز ، ج ٢ ، ص١١٥ .

سبق أن بينا من واقع سجلات الترابيع كيف كانت تقدر العادات بأموال تضاف إلى المال الميرى ، كما أن سجلات الألتزام سجلت ذلك أيضا .

أثبته الشيخ يوسف الشربينى لهذا النوع من الظلم الذى فرض على أهل الريف، وواضح أنه أصاب الهدف بتصويره هذا النوع من المظالم فى أسلوب واضح دقيق لا يحتاج معه إلى دليل آخر. وأنه إذا كان قد قسى على الفلاح فى ظاهر الكثير من ألفاظه إلا أن ذلك لم ينسه تسجيل المظالم التى وقعت عليه من أصحاب السلطان.

وكان منصفاً حقاً عندما ذكر أن بعض الملتزمين كان يتعفف عن الوجبة بالكلية وتحدث عن غرامة البطالين واستخدام الفلاحين بدون أجر قائلا « فكل ما كان فيه إضرار للناس فهو حرام » ، ويبين لنا بوضوح «أن الأمير أو غيره إذا التزم بقرية وجد فى دفاتر من التزم بها قبله الوجبة وغرامة البطالين ، وغير ذلك مما هو من أنواع الظلم ، فيجعل ذلك على أهلها حكم الحوادث * السابقة كما جرت به العادة»(١) والحقيقة أن الشيخ يوسف الشربينى فى شرحه هذا لا يقل درجة عن ما أثبتته الوثائق فقد سجلت دفاتر الالتزام المحفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة بالقاهرة ، العادات المقررة على الفلاحين للملتزمين والكشاف وغيرهم.

وكذلك أوضح فى شرحه لنزلة الكشاف على القرى ، مدى الخراب الذى كان يلحق بعض القرى نتيجة لتصرفاتهم ، وكيف أن الفلاحين « يسرعون له فى الأكل والشرب والتقاديم على ما جرت به العادة » (٢) .

أما وقت مجى «الديوان» ، أى حلول ميعاد سداد مال الديوان « فيكثر الخوف والحبس والضرب لمن لا يقدر على غلاق المال ، فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بزيادة ، أو يأخذ على زرعه إلى أوان طلوعه بناقص عن بيعه فى ذلك الزمن ، أو

---

(١) هز ، ج٢ ، ص ١١٥ .
* الرسوم والضرائب المستحدثة
(٢) هز ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

يبيــع بهيمته التى تحاسب على عياله ، أو يأخذ مصاغ زوجته يرهنه ، أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها ، ويدفع الثمن للنصرانى ، أو لمن هــو متولى قبض المــال وإن لم يجد شيئا ، ولايرى من يعطيه ، وخشى الملتزم أو المشد من خرابه (*) من البلد أخذ ولده رهينة عنه ، حتى يغلق المال ، أو يأخذ أخاه ، أن لم يكن له ولد أو أحد من أقاربه ، أو يوضع فى الحبس الضرب والعقوبة حتى تنفذ فيه أحــكام الله تعالى ، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه من هم المال وضيق المعيشة . . . حتى إشتهر وعم مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم» ثم يذكر «فنزول الديوان فى البلد على كل حال ، أمر مهول على الفلاحين ، ومصيبة على المقلين . . . فلابد على كل حال من تغليق المــال ، ولو حصل من ذلك الهم والنكال»(١) وهكذا نرى أن الشيخ الشربينى لم يستطع ، ازاء شكوى الشاعر الشعبى سوى ذكر الحقائق ، ووضعها بالصورة التى كانت تطبق بهــا فى وقته حتى أصبحت معلوماته ذات أهمية تاريخية كبيرة ، أضف إلى ذلك أن الشيخ الشربينى سجل لنا حقائق على قدر كبير من الأهمية ، فهو يذكر أن قابض المــال لم يكن فى كل الاحوال نصرانيا ، كما هو شائع ويفهم ذلك من قوله ويدفع الثمن للنصرانى ، أو لمن هو متولى قبض المــال .

ثم يواصل الشيخ رسم الصورة التى شكى منها الشاعر الشعبى ، ويزيدها إيضاحا عندما يعرض لشكواه من قضاء عمــره فى الهم من أجل الخراج ، عاقدا لنا مقارنة تاريخية جميلة بين المغارم التى أصبحت تحل بالفلاحين فى عصره نتيجــة للموائد

---

* ـ يقصد هروبه من البلد .

١ ـ هز ، ج ٢ ، ص ١٢٥ ، ١٢٨

وكثرتها وبين الصورة اليسيرة التى كانت تسير عليها الأمور في العصر السابق لعصره وبين لنا كيف أن « الأرض لايقوم بزرعها إلا الفلاح القوى التيسر ، خصوصا لما زاد عليها الآن من المظالم ، وزيادة الخراج والعوائد المكتتبة على الفلاحين والمغارم فالزرع وإن ورد أن فيه تسعة أعشار البركة لايفى بهذا المقدار من كثرة الظلم ، وأما فى الزمن المتقدم فلم يكن عليه عوائد ، ولا كلف ولا مغارم ولا شىء مما هو موجود الآن بل كان الشخص يزرع الأرض ، وكان خراجها شيئا يسيراً ، ولايعرف وجبة ولا غرامة ولا شيئاً من ذلك قط » ويعقب بقوله «وكانت البركة حاصلة بزيادة والأرض كلها عامرة بالزرع والناس فى غاية الخير وسعة الرزق والكسب»(١) .

لاريب فى أن هذه المعلومات التى سجلها الشيخ الشربينى كمعاصر لوقت حدوثها بأمانة ودقة ، مع ربطها بالصورة التى كانت سائدة قبل عصره ، وهذا النهج يعطى لشرح الشيخ الشربينى الصفة العلمية الموضوعية .

وعندما يعرض للعونة وخوف الفلاح منها وخشيتها ، فإنه يشرحها بصورة واضحه يستطيع الدارس أن يجد فى شرحه كل مايبتغيه عن ماهيتها ووقتها والقرى التى تشملها وإقرارها ، وعدم شرعيتها فهى « أوان حفر السواقى وضم الزرع ، وحفر القنى ، مما يحتاج إليه فى هذا المعنى ، والعونة (السخرة) إنما تكون فى بلاد الملتزمين التى فيها الإوسية ، وهو أن غالب الملتزمين إذا أخذ قرية ، أو كفرا من كفور الريف يزرع فيها ، أوفى الكفر جانباً من الأرض ، والبقية يعطيها الفلاحين بخراج معلوم ، ويسمى هذا الجانب الذى يزرعه زرع الأوسية فيرسل ثيراناً وأخشابا وعاريث وما يحتاج إليه ، ويجعل له على ذلك وكيلا وغلاماً معداً لأخشابه وبهائمه ، ويقال لها دار الأوسية ، ويوكل من يصرف على البهائم وغيرها ، بحساب وضبط ،

---

(١) هز و ج ٢ ، ص ١٤١ .

فإذا احتاج الأمر لشيل الطين من الآبار ، ولحفر القنى أو ضم الزرع ، أمر الشد بالقرية أو الكفر رجلا يقال له النفير فينادى المونة يافلاحين ، المونة يابطالين ، فيخرجون عند صبيحة النهار جميعهم ، ويسرحون للحفر ، أو لكل مايأمرهم به كل يوم ، من غير أجرة ، إلا أن يفرغ الحفر والضم ، وكل من تراخى أو تكاسل عن السروح ، أخذه الشد وعاقبه وغرمه دراهم معلومة ، وبعض البلاد تكون المونة فيها على رجال معروفين بالبيوت مثلا (*) ، فيقولون يخرج من بيت فلان شخص واحد ومن بيت فلان شخصان بحسب ماتقدر عليهم قديماً وحديثا ، فلاينفك من عليه المونة منها ، وإن مات جعلوها على ولده ، وهكذا ، فهى داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظمى على البطالين ولله الحمد أراح الله قريتنا منها ، إنما هى قراريط معلومة على الفلاحين لايعرف الملتزم إلا خراجها يأخذه فى كل سنة على التمام والكمال ، وإن كان عليهم بعض العوائد ، ومظالم فليست كبلاد الأوسية ، لأنهم دائما فى تعب وكدر وغرامة وسخر وهم زائد »(١) .

وهكذا أوضح الشيخ الشربينى بما لايدع مجالا للشك مدى الظلم الذى كان يحيق بالفلاحين نتيجة للمونة وغيرها من العوائد ، بل أكد أن المونة من أشد أنواع المظالم التى حلت بالفلاح آنذاك ، وبذلك نستطيع أن نقرر أن الشيخ يوسف الشربينى فى شرحه لهذا القسم من قصيدة الشاعر الشعبي أبى شادوف وضع أمامنا الحقائق التالية .

(*) يقصد بالبيوت العائلات .

(١) هز ، ج ٢ ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

ذكر الجبرتى عن المونة « وكان من طرائقهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم النفير أمس اليوم المطلوبين فى صبحه بالتبكير إلى شغل الملتزم ، فمن تخلف لعذر أحضره النفير أو الشد وسحبه من

أولا . أن الفلاح كان يعانى الكثير من المظالم التى حلت به نتيجة لتطبيق نظام الالتزام عليه وادارة الأرض الزراعية عن طريقه .

ثانيا : استغلال الملتزمين واعوانهم من أجهزة الادارة ، لسلطانهم ، وانباعهم طرقا غير مشروعة فى معاملاتهم الفلاحين ، وفرضهم كثيرا من العوائد التى أصبحت ترهق كاهل هذه الطبقة .

ثالثا : تقاعس السلطة المركزية فى القاهرة ، عن ردع هذه الاذوات وتركها فى ممارسة تعسفها مع الفلاحين ، دون تدخل من جانبها ، فيه دليل إدانة لها وبرهان على ضعفها .

وأخيرا يمكننا أن نقرر باطمئنان ، أن الشيخ الشربينى ، اذا كان قد الصق كثيرا من الصفات البذيئة بالفلاحين ، إلا أنه فى هذا الجزء من كتابه كان جريئا حقا عند توضيحه للمظالم التى حلت ؟ بالفلاحين ، ونقده للاوضاع السائدة ، وعدم تردده فى ذكر أنها ظلم وحرام وغير ذلك كما سبقت الإشارة ، ولهذا يمكننا أن نذكر أنه اذا كان فى الكتاب جانب اتهام للفلاح — وربما كانت له دواعيه . فإن فيه أيضا جانب إنصاف .

* * *

٢ — القسم الثانى من القصيدة وموضوعه :

الأطعمة التى تمناها الشاعر الشعبى أبوشادوف ، تعبيرا عن حاجة ابناء طبقته اليها : رغم فقر هذه الأطعمة ، إلا أن تغنى الشاعر الشعبى بحرمانه منها ، يوضح لنا الى أى مدى ساء حال الفلاح حتى اصبحت نفسه تهفو الى هـذه الاطعمة ، وذلك نتيجة للمظالم التى سبقت الاشارة اليها والتى أرهقت كاهله أما الابيات فهى :

= شنيه واشيمه سبا وشتما وضربا ، وهو المسمى عندهم بالمونة والسخرة ، واعتادوا ذلك بل يرونه من اللازم الواجب » عجائب الآثار ج٤ ص٢٠٧ وفى رأينا أن وصف الشيخ الشربينى أكثر إيضاحا وتصويرا وعمقا عما ذكرة الجبرتى .

١٠-ولا هدنى من بعد هاد ، وهاده — سوى الكشك(*) لما يستحق غريف

١١-ولا شاقنى الا المدمس وريحتو — علا من جتو جفنه بنص رغيف

١٢-علامن رأى البيسار فى الجرن جالوا — ويدعس(**) ولو كان بالقلنج ضعيف

١٣-على من قشع جفنه بليلة ملانــه — ولو كانت بلا قلقاس يادنديف

١٤-على من جتو قصعه وهو بيحسرت — ويقعد يجرف الحنك تجريف

١٥-على من دعس بالدزم فى المش بالبصل — ولو كان بالسكرات كان ضريف

١٦-على من شرب مترد ملان مطنبو — من اللبن الحامض يرف رفيف

١٧-على من جتوا أم الحساول لدارو — ويعزم على أهل البلد ويضيف

١٨-أنا إن شفت عندى، يوم طاجن مشكشك — فهداك يوم البسط والتقصيف

١٩-متى أنضر الخبز فى الدار عندنا — واندف منها بالعويش نديف

٢٠-متى أنضر الفول المشوى بقرننا — ولفو يقشروا والمزوق لفيف

٢١-متى أنضر أن طحن الطحين وجيتو — ويبطط لى منه فطير رهيف

٢٢-أيا مطيب الجلبان والمدش إذا اشوى — وشرش بصل حولو ونميت رغيف

٢٣-يا محسن الخبز القمر على الندى(***) — فوقو من السرسوب حلب نضيف

٢٤-على من ملا قحفو جبينه طريه — وراح ورا الجاموس يرعى النيف

٢٥-على من قشع لقانة أمو ملانه — من المخيطلية اللى لها ترصيف

٢٦-واقعد لها بالعزم فى رايق الضحى — واسحب لها مصبوبة أم وطيف

(*) نوع من الطعام لازال يستعمل فى الارياف .

(**) أى يأكل بشراهة حتى يملأ بطنه .

(***) يقصد فى الصباح المبكر وقت أن يكون الندى على النباتات .

٢٧- ألا يا ترى إشحال اللبن بعد غاوه ... ولو كان بالخبز السخين رديف

٢٨- ألا يا ترى إشحال مفروكة اللبن ... على زلطها قلبي يرف رفيف

٢٩- أنا إن شفت لقانة ابن عمى مخيمر ... ملانة من التقتيت ماو طفيف

٣٠- قشرته جميعه ما تركت بقيته ... لنيرى ولا عنـدى بدا توقيف

٣١- أناخاطرى أكلت فسيخ على النده ... أضـال عليها باكيا وأسيف

٣٢- على من نضرفى فرن دارو طواجن ... زغاليل من برج بن أبو شمنيف

٣٣- وفطر فطاير من طحين ابن عمه ... ويقعد لها قعدة غلام خسيف

٣٤- على من نضر طاجن سمك فى فرينه ... ولو كان يا إخوانى بلا تنضيف

٣٥- على من رأى فى التل كرش ملقمح ... ومن فوقه الدبان يصف عفيف

٣٦- دنا إن شفته خدتو بحالو سلقتو ... وكلتو بتلفوا ما أرى تقنيف(*)

ولم يزد عمل الشيخ الشربينى عند شرحه لهذا القسم رغم طوله ، عن وصف هذه الأطعمة وأن الفلاح حرم منها ، نتيجة للمظالم المادية التى حلت به ، ونظر لنشأة الشيخ الريفية ، وتردده على كثير من القرى، والتقائه بكثير من أهل الريف، فإنه أجاد فى شرحه لصناعة هذه الأطعمة ، فى كل من الريف والمدينة ، وأكد أن صناعة هذه المأكولات أحسن وأكثر إتقانا فى المدينة عنها فى الريف، كما ذكر بعض الحكايات المتعلقة بتسمية هذه الأطعمة ، وبعض فوائدها فى علاج بعض الأمراض، وزمن ظهور بعضها،وفى زمن من الخلفاء والسلاطين ظهر هذا الصنف أو ذاك ، وسجل بعض الأشعار والمواويل التى تغنى بها أهـل الريف عن هذه الأطعمة .

• • •

(*) وضع الشيخ الشربينى فى شرحه وصفا واضحا لجميع هذه الأطعمة والأوانى التى تستعمل فى صناعتها .

٣ ـ القسم الثالث من القصيدة وموضوعه :

تمنى الشاعر الشعبي زيارة المدينة وتحقيق بعض أمنياته فيها وأكل بعض الأطعمة التى حرم منها :

٣٧ـ أنا إن عشت لاروح المدينة وأشبع   كروش ولو أنى أموت كفيف
٣٨ـ وأخذ من غزل العجوز وأبيعو   وآكل بحقو يا ابن بنت عريف
٣٩ـ وأسرق من الجامع زرابين عدة   وآكل بها من شهوتى فى الريف
٤٠ـ وأشبع من الترمس وآكل مقيلى   وألفوا بقشرو ما أرى توقيف
٤١ـ وآخذ لى لبـــدة وكرمشنير   وأنزل كما كلب ابن أبو جفنيف
٤٢ـ ويجلس بجنبى ابن جرو وكل خره   وابن كل السلك النضيف وضيف
٤٣ـ وابن فسا النيران وابن خرا الحسه   وقلوط الزبـــلة وابن كنيف
٤٤ـ واختم قصيدى بالصلاة على النبي   نبي عربي مكى شريف عفيف

• • •

وواضح من هذا القسم أن الشاعر الشعبي عبر عما يعانيه أبناء طبقته من الحرمان والفاقة ، فدارت بخاطره أمنيات ، تمنى أن يحققها بذهابه إلى المدينة ، لعله يتمكن من إشباع نهمه بالمأكولات التى حرم منها ، حتى ولو كلفه ذلك ، ارتـكاب جريمة السرقة فترجم بذلك عن ذات نفسه ونفس أبناء طبقته بشعره هذا .

• • •

من العرض السابق لجزئى كتاب هز القحوف ، يتضح لنا أن الـكتاب على جانب كبير من الأهمية لدراسة تاريخ مصر فى العصر العثمانى لأمور عدة :

(*) يقصد ثمنه .

أولا : إن القضية الأولى والهامة التى يثيرها الكتاب ، وتشكل عموده الفقرى هى قضية الفلاح وحاله فى العصر العثمانى المملوكى ، فإذا كان بطل الكتاب الأول الشاعر الشعبى أبو شادوف ، قد نظم قصيدته ، مبيناً لنا سوء الحال التى عانى منها الفلاح ، والظلم الذى وقع عليه فى ذلك العصر ، فإن الانصاف يستدعى أن نذكر أن الشيخ يوسف الشربينى ، قد أضاف بشرحه للقصيدة الأمور إيضاحا ، كما ظهر لنا من النصوص التى ذكرناها ، وأوضح بأسلوبه أن هذه من أمور الظلم التى حلت بالفلاح فى ذلك العصر .

ثانياً : أوضح الكتاب فى جزئه الأول ، مـــدى سيطرة الطرق الصوفية على سكان الريف وترك لنا بصمات تدل على أنه إذا كان قد وقع على الفلاح مكرها ، ظلم الإدارة نتيجة للأعباء التى أصبح يئن منها ، فإنه عن طواعية واختيار اضاف عبء العادات التى كان يتطلبها وقوعه تحت سلطان الطرق الصوفية وقد سبقت الإشارة إلى ذلك .

ثالثاً : يعد الكتاب مرجعاً وافياً لدراسة العادات والتقاليد الريفية والحضرية التى كانت سائدة فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى ، والتى مازال بعضهـــا حياً فى كثير من قرانا ومدننا ، ولذا فإن الكتاب يصبح مصدراً وثائقياً هاماً لدراسة المجتمع المصرى فى تلك الفترة،بل والفترة السابقة لأن الشارح كثير الاستطراد فى أسلوبه ، فكثيرا مايتتبع نشأة هذه العادة أو غيرها عن طريق سرد الكثير من القصص والحكايات .

رابعاً : فى الكتاب جانب علمى هام حيث أن الشيخ الشربينى فى أثناء شرحه

يسرد كثيراً من الحكايات عن فوائد بعض الأطعمة الطبيعية ، والأغراض التي تستعمل فيها ، وكيف يستعملها الفلاحون ، ورغم أن الكتاب يعد موسوعة في هذه الفروع ، ورغم استطراد الشربيني من موضوع إلى موضوع والخروج من حكاية إلى حكاية ، فإن كل هذه الأمور لا تحجب عن العين القضية الأولى والهامة التي يعالجها الكتاب وهي قضية الفلاح . فالكتاب مصدر جدير بالاهتمام .

* * *